النصوص الفردية أم الخطابات الجمعية؟

(القشرة وما تحتها)

أ.د. محمد سعيد ربيع الغامدي

ورقة ألقيت ونوقشت في حلقة جدة النقدية
بتاريخ 22 / 3 /1434هـ

النصوص الفردية أم الخطابات الجمعية؟

(القشرة وما تحتها)

محمد ربيع الغامدي

(1)

هذه صورة للوحة دعائية لماركة سجائر تسمى "SILK CUT". تخلو هذه اللوحة كما هو واضح من اسم الماركة كتابةً، ولا يدل على أنها لوحة دعائية للسجائر غير عبارة التحذير الحكومية المعروفة التي كتبت تحت الصورة.

يتضح للمتأمل في هذه الصورة أن هناك مناسبة بين كلمة (SILK) وهذه الصورة لقطعةٍ من قماش السلك المتموج الرقراق، وبين كلمة (CUT) والقطع الذي حدث لقطعة القماش، كأنما قطعت بشفرة موسى، إذ إن معنى العبارة الإنجليزية التي تكوّن الاسم هو: "قطع السلك، أو: السلك وقد قطع، بمعنى: السلك المقطوع". هذه هي القراءة الظاهرة التي ربما يصل إليها كل من شاهد الصورة وربط بينها وبين اسم الماركة المعلن عنها بها. وربما يتبادر إلى الذهن أنها الدلالة البدهية التي عوَّلَ عليها المعلِن لترويج سلعته.

غير أن رواية "ديفيد لودج": (Nice Work) تزعزع هذه القراءة على لسان إحدى شخصيات الرواية، وهي امرأة اسمها (Robyn) حين باشرت هذه اللوحة بقراءة رأسية تظهر أن القماش الحريري، المتموج الرقراق، كثير التعطفات، يرمز إلى جسد المرأة. وأن القطع الإهليجي فيه إنما يرمز إلى الأعضاء الأنثوية بصورة يبدو فيها الكثير من الشهوانية والسادية والنـــزوع إلى اختراق جسد الأنثى وتشويهه، والتلذذ بذلك. وهذا إنما هو صورة طفحت وظهرت على السطح لما يستقر في أعماق

العقل الجمعي لمجتمع بطرياركي ذكوري يميل في أعماقه إلى السيطرة على المرأة وتشويه جسدها واختراقها.

ينـــزعج الرجل الذي يتحادث مع المرأة في الرواية، واسمه (Vic Wilcox) من هذا التحليل البعيد المتكلَّف، ويسألها كيف أمكنها أن ترى هذا كله في صورة لقطعة قماش؟ فترد عليه هي: **إذن قل لي: لِمَ اختيرت قطعة القماش لإعلان سجائر؟**

ــ بكل بساطة، لأن الاسم هكذا. إنها صورة الاسم، لا أقل ولا أكثر.

ــ حسنًا، لو اختير خيط (واسمه أيضًا سلك كالقماش تمامًا) وقُطع من منتصفه فيصير قطعتين، هل سيؤدي نفس الغرض في الإعلان؟

ــ نعم، ولِمَ لا؟

ــ لأنه كان سيبدو عضوًا لا يخص الأنثى، وقد قُطع.. هذا هو السبب.

انتزع ضحكة يخفي بها حرجه الشديد، ثم تساءل:

ــ لماذا تبحثون عن معان مُخفاة؟ لِمَ لا تأخذون الأمور بدلالاتها الظاهرة؟ السجائر هي السجائر، وقطعة القماش هي قطعة القماش. لماذا لا تُبقون الأمور عند هذا الحدّ؟

ــ لأن الشيء إذا مُثِّل بـــ "علامة" فلا شك أنه بحاجة إلى معان إضافية. العلامات ليست بريئة أبدًا. وأضافت: قل لي: باعتقادك لماذا سميت هذه السجائر البائسة سلك كت: (قطع السلك) ابتداءً؟

ــ لا أعلم. إنه مجرد اسم كأي اسم آخر.

ــ القطع له علاقة بقطع التبغ. أليس كذلك؟ لكن السلك ليس له علاقة بالتبغ. إنها استعارة تعني أن التدخين ناعم كالحرير.. حلُم بعض مَنْ كان بالشركة بهذه التسمية الناعمة التي تنقل الانطباع بأن تدخين هذا النوع لا يجلب التهاب الحنجرة، ولا السعال، ولا سرطان الرئة. لكن بعد فترة تعوَّد الجمهور على التسمية بحيث لم تعد التسمية تدل إلا على هذا النوع، وخفتت إيحاءات الدلالة المصاحبة. أرادت الشركة أن تبعث من جديد صورة مميزة برّاقة للماركة.. توصَّل بعض البارعين في الشركة إلى فكرة قطعة القماش الحرير المموج وفكرة القطع بها. لقد مُثلت الآن الاستعارة (Metaphor) الأصلية حرفيًّا. لا يهم إن كان من قام بهذا العمل واعيًا بالتمثيل أم لا. هذا الأمر مثال ممتاز للانزلاق المستمر لـــ "المدلول" تحت "الدال".

ـــ ولماذا يدخن النساء هذا النوع إذن؟

ـــ كثير من النساء مازوخيات.. لقد تعلَّمن أن يفعلن ما يتوقعه منهن المجتمع البطرياركي الذكوري.

ـــ ها!! ربما كنت أعرف أنك ستجيبين بمثل هذا.

ـــ لماذا أنت منـــزعج، كما لو كنت تدخن السلك كت.

ـــ لا، أنا أدخن مالبورو.

تذكرت روبين حينها ذلك النوع من السجائر وصورة الدعاية التي تظهر إلى جانب علبة السجائر: صورة الكاوبوي، وحياة الريف، وانطباعات الطلاقة والحرية والقوة.

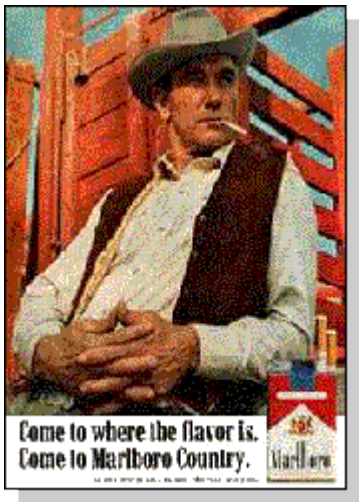

وهي صورة تعتمد على الـــ (Metonymy) بعكس دعاية السلك كت التي تعتمد على الـــ (Metaphor). بدأت روبين تشرح الفرق بين المفهومين، وكيف وظفت كل واحدة من اللوحتين الدعائيتين أحدهما، وأن ذلك يبين كيف تشتغل اللغة، باعتبار أن هذا الأخير يعتمد على علاقة الاستبدال الرأسية (البراديغم) بحيث يحل المقصود بالشيء محل الشيء نفسه، وأن الأول يعتمد على علاقة التجاور الأفقية (السانتيغم) بحيث تحل نسبة الشيء أو سببه أو نتيجته محل الشيء نفسه، على النحو المبين بالشكل التالي:

(السانتيغم): السياقية الاتصال الضم

(الباراديغم):

المشابهة

الاستبدال

الاختيار

ــ في حالة دعاية "سلك كت" كانت الصورة تمثل الجسد الأنثوي بطريقة استعارية (Metaphorically) بحيث يدل القطع فيه على بعض أعضاء الأنثى. إذ إن أي تجويف أو شق أو عطف هو بهذه المثابة... ولكن دعاية "مالبورو" لا تعتمد أي نوع من هذا. ربما لهذا السبب أنت تدخن مالبورو... يبدو أنك لا تتعاطف مع الطريقة الاستعارية في نظرتك للأشياء. السجائر عندك هي السجائر. المالبورو لا تزعزع مثل النظرة الساذجة لاستقرار المدلول وثباته. ولذلك هي تثبِّت علاقات الـــ (Metonymy) بين تدخين ماركة معينة وحياة الكاوبوي الصحية البطولية المنطلقة.. اشتر السجائر لتشتريَ معها نمط الحياة والاستمتاع به.

لقد أورد دانييل شاندلر [1] هذا المقطع المشار إليه من رواية ديفيد لودج (الصادرة عام 1988م)، معلقًا على ما ابتدأته روبين ــ حين أزعجها وميض هذه اللوحة المتكرر على جنبات الطريق وهي تسير مع فيك ــ بأنها بدأت **"تزيل قشرة"** هذه الأيقونة لتقرأ ما تحتها. هذه القراءة الرأسية التي لا تكتفي بالكشف عن قبح دلالة الأيقونة المعروضة وحسب، بل تتعدى ذلك لتقرأ مجتمعًا بأسره، لولا ما استقر في أعماقه من تصورات عن الأنثى ما ظهرت هذه الأيقونة (حتى إن لم يكن منتجها واعيًا وعيًا كاملا بها) ولما وثق منتجها بفعاليتها.

[1] Chandler, Daniel (2001): Simiotics, London: Routledge, pp. 214-216.

يهمنا في ضوء المدخل السابق التأكيد على أن أكثر الظواهر يلزم لقراءته ـــ بالضرورة ـــ إزالة القشرة وقراءة ما تحتها على النحو الذي مضى؛ وذلك من أجل الوصول إلى ما يختفي وراء القشرة مما قد لا يتبين قي كثير من الأحيان أن وراء قشرته ما تخفيه. إزالة القشرة تعني أن نطل على أعماق الظواهر بدلا من إلقاء نظرة خاطفة على سطوحها. قراءة ما تحت القشرة تعني القراءة الرأسية التي تحتفل بعلاقات "البارادیم": الاستبدال والاختيار، في مقابل القراءة الأفقية التي لا تحفل إلا بعلاقات "السانتيم": الاتصال والضم. وكما يمثل هذان النوعان من العلاقات تباينا في وقوعهما على محوري التحليل، وفي تجليات العلامة بين الـــ (Metaphor) والـــ (Metonymy)[٢]، وتترجمان في العربية بـــ (الاستعارة) و(الكناية)[٣]، يمثلان أيضًا تباينًا في إدراك العلامة ومدى ما تمثله أو يمثلها. عند هذا الحد يمكن الحديث عن ضرر الاكتفاء بالقراءة الأفقية للظواهر، ولكن أيضًا يمكن الحديث عما هو أكثر ضررًا من ذلك، هو أن القراءات الأفقية قد تشكل حاجزا كثيفًا مانعًا دون إجراء القراءة في المستوى الرأسي المطل على الأعماق، وهو ما أرجو أن يتضح في سياق العرض لاحقًا.

(2)

ما مضى في الفقرة السابقة يمكن أن يقدم إطارًا عامًا غير محدود ولا مخصوص للتقابل الحاد بين منحيين متباينين، يحدد كل منحى منهما زاوية النظر إلى الظواهر المختلفة، وينبني عليه فهم مخصوص لها. كما أن هذا الإطار هو من السعة والعموم بحيث لا يختص تطبيقه بقراءة ظاهرةٍ معينة دون غيرها. غير أننا هنا سنعمد ـــ لضرورة منهجية ـــ إلى تطبيقه إجرائيا على دائرة محدودة، وفي الوقت نفسه يمكن في ضوئها تعميم التطبيق نفسه على دوائر أخرى كثيرة ومتنوعة. وسنعمد للضرورة المنهجية ذاتها إلى حصر الدائرة المنظور إليها في نطاق واحد هو النطاق المحدود في بنيته العميقة بـــ "الخطابات الجمعية" (الخطاب القبلي، الخطاب الديني، الخطاب السياسي... إلخ)، وفي بنيته السطحية بـــ "النصوص الفردية" التي تجري على ألسنة الأفراد المنتمين إلى هذه الخطابات.

---

[٢] ذكر إمبرتو إيكو بعض أقدم تجليات الـ (Metaphor) والـ (Metonymy) للعلامة في محاولات الإنسان الأولى بالسحر الاستحواذ على الأشياء إما برسم صورة الطريدة والرمح على الكهف (استعارة) وإما بالاستيلاء على أشياء تعود إلى الكائن الذي يريد الاستحواذ عليه (كناية). انظر إيكو، إمبرتو. العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، ترجمة سعيد بنكراد، ط 2، المركز الثقافي العربي، 2010م، ص 206.

[٣] لا أتفق مع ترجمة الكلمتين بالاستعارة والكناية؛ لعدم تطابق المفهومين مع نظيريهما في العربية. والأولى عندي هو تعريب اللفظين لا ترجمتهما.

النصوص المفردة

الخطاب الجمعي

وحين يُريد المرء أن يقابل بين البنيتين سيجد أن النصوص المفردة تقع بالضرورة في المستوى الأفقي، وهي التي تُرى وتُسمع وتُحَس ويُعوَّل عليها في العادة بكثرة، في حين تقع الخطابات الجمعية في المستوى الرأسي، ونادرًا ما يُلتفت إلى قراءتها وسبرها. غير أن الخطورة تكمن في أن التعويل على النصوص المفردة يحول دون رؤية حقيقة ما تقوله الخطابات الجمعية. ومما يفاقم حجم الخطورة أن النصوص الفردية تنـــزع في كثير من الأحيان إلى حماية مقولات الخطابات الجمعية وتكريسها، فتكون لذلك واهمة وموهمة.

ونورد فيما يلي مثالا يبين من جهةٍ حالة نزوع النصوص الفردية إلى حماية مقولات الخطابات الجمعية، ويبين من جهة أخرى الفرق بين الاكتفاء بالنظر إلى الدلالة المباشرة للنصوص المفردة (القراءة الأفقية) والنظر في أعماق الخطاب الجمعي الذي تنتمي له النصوص الفردية (القراءة الرأسية)، حيث إن النصوص الفردية تصرِّح في الظاهر بخلاف مقولاته وتوهم بغير حقيقتها. والمثال هو دراسة قام بها (دانييل برومبرغ) على مجمل النصوص الصادرة عن "جبهة الإنقاذ الوطنية" في الجزائر من خلال البيانات والمقابلات والأحاديث المتلفزة والمذاعة على ألسنة بعض مسؤوليها في الفترة التي كانت الجبهة تُعد نفسها لتولي السلطة في الجزائر. إذ وجد أن تلك النصوص تصرِّح كثيرًا بقبول مبادئ الديموقراطية وتبنيها والتماهي معها، وهو ما يتعارض في العمق مع جوهر أطروحتها

المتشددة[4]. فذهب برومبرغ إلى تسمية هذا الملمح بـــ "الحداثة التكتيكية" التي تتخذ من ادعاء تبني مبادئ الحداثة وسيلة للدفع إلى الأمام بمبادئ التقليدية، أي: أن الحداثة تصبح بمثابة التكتيك لحماية التقليدية وتكريسها، وبحسب عبارته: "استخدام الموضوعات المستحدثة لدفع برنامج أصولي إلى الأمام". ومن كان يعوِّل على دلالة نصوص البيانات والمقابلات والأحاديث ويربط بين مضامينها ويضفي على الجبهة صفة الحداثة والتقدم إنما كان في حقيقة الأمر يقرأ هذه النصوص أفقيًّا ويتجاهل قراءة البنية العميقة للخطاب التقليدي التي لا تتأسس الجبهة إلا عليه. وبعبارة أخرى يمكن القول: إن نزع القشرة كان يقتضي قراءة ما خلف تلك النصوص، عوضًا عن قراءة النصوص نفسها.

الحالة الجزائرية الممثل بها هنا يمكن النظر من خلالها إلى نوع واحد من الخطابات الجمعية المتعددة، وهو النوع الذي يتعمد بعض أفراده إنتاج نصوص مفردة تجميلية بقصد حمايته والترويج له وإطالة أمده. أما الأنواع الأخرى من الخطابات التي لا يشعر المنتمون إليها بشيء من القبح فيها قد يستحق الإخفاء أو التجميل فالأمثلة عليها كثيرة جدًّا؛ ولهذا ينتج الأفراد المنتمون إلى هذه الخطابات من النصوص ما يعكس القناعة التامة بكمال الخطاب وبراءته من كل عيب أو قبح. ولكن في كلتا الحالتين ينبغي التأكيد أن التعويل على تلك النصوص المفردة يعني القراءة الأفقية التي لا تذهب إلى أبعد من الربط بين علاقات المقروء الخطية، ولا تصل إلا إلى تكريس الدلالة التي أرادها المنتجون لا غير. وهذا معناه النظر إلى الخطاب من فوق القشرة وليس النظر فيه من تحتها. وسنذكر في الفقرة التالية بعض الأمثلة والتطبيقات التي توضح هذه المسألة.

(3)

من المؤكد أن خطاباتنا السائدة المهيمنة (الاجتماعية والدينية والثقافية) هي العامل الأهم في رسم تصوراتنا للحياة والكون وطرق التعامل والتعايش مع بعضنا ومع الآخرين. وهي خطابات جمعية لها علينا سلطة لا تُقاوَم وإن توهمنا أحيانًا أننا نستطيع مقاومتها. تتجاور هذه الخطابات، وتتصارع، ويحاول كل خطاب منها الزحف على غيره من الخطابات الأخرى وطيّ جزء منه في حدوده، وإن بدت في الظاهر متعايشة متكاملة. لكن الغلبة في النهاية تكون للأكثر هيمنة والأوسع في فرض القدر الأكبر من مفاهيمه ورؤاه وتصوراته. (هنا يمكن الحديث عن نماذج كثيرة لا تكاد تحصر من تداخل

[4] ينظر برومبرغ، دانيل: "الخطاب الإسلامي تقاسم السلطة والديموقراطية: حالة الجزائر" منشور ضمن كتاب "التعدد وتحديات الاختلاف: المجتمعات المنقسمة وكيف تستقر" ترجمة عمر الأيوبي، ط 1، دار الساقي، 1997م، ص (305 - 322).

التقاليد الاجتماعية مع المفاهيم الدينية، أو المفاهيم الدينية مع المظاهر الثقافية والسياسية.. إلخ). وبهذا تتمدد الخطابات ولا تعرف حدودها الحقيقية، والقراءة الأفقية ــ التي تحتفي بالنصوص المفردة الظاهرة دون النظر في العمق ــ لا تؤدي إلا إلى مزيد من الجهل بحدود كل منها، وتزيد من تكريس الوهم بهذه الحدود. كما أنها في الوقت نفسه تحول دون رؤية حقيقة ما ينطوي عليه الخطاب الجمعي من تناقضات.

التعويل على النصوص المفردة وعدم الاكتراث بالقراءة الرأسية للخطاب الجمعي القبلي من داخله هو المسؤول عما نتوهمه ونصدقه من أن (مهرجانات مزايين الإبل) على سبيل المثال تصب في (الوحدة الوطنية) لمجرد أن بعض المشاركين فيها والمسؤولين عنها يصرحون بذلك، أو بعبارة أخرى: ينتجون من النصوص المفردة ما يفيد أن مهرجانات المزايين لا تكرس القبلية ولا تتعارض مع الوحدة الوطنية. وهذا الأمر نفسه ينطبق على القنوات التلفزيونية الشعبية التي كثيرًا ما يؤكد مالكوها والعاملون فيها وكثير من مشاهديها براءتها من دعم العصبية القبلية وتكريسها والحض عليها. وهذا القدر من التعويل هو المسؤول أيضًا عن تصديقنا مثلا مقولة "إصلاح" شعر المحاورة من خلال مسابقة تلفزيونية كبرى[٥].

مسألة التعويل على النصوص المفردة وإهمال القراءة الرأسية الجادة للخطاب الجمعي المذهبي السائد تتجلى ــ فيما أرى ــ في الأقوال التي تتردد عن أحداث (الإرهاب) المحلية، والتي تعكس التصورات الشائعة عن الإرهاب بما لا يتعدى نتائجه النهائية وثمرته (أي: التفجير)، وعلاقاته الاتصالية الخطية التي تكتفي بالسياق والسبب والنتيجة (التكفير)، وعدم النظر في الجذور والتصورات الجمعية التي منها وعليها نمت شجرة التكفير أساسًا. ولهذا نبرئ عادةً من تخلى عن التكفير أو التفجير وإن لم يتخل عن التصورات القارة الصلبة التي نبتت منها الشجرة، دون أن نشعر بالتناقض. إذ إن التصورات الموهمة الشائعة عن ظاهرة الإرهاب لم تتشكل إلا من خلال النصوص الصادرة عن أفراد ينتمون إلى ذلك الخطاب الجمعي، ويسهمون بنصوصهم في صناعة القشرة الواقية له.

---

[٥] تُجري إحدى القنوات الشعبية هذه الأيام مسابقة شعرية للشعر الشعبي المسمى "شعر الرد" أو "المحاورة". قرر القائمون على المسابقة ـ برؤية إصلاحية قطعًا ـ أن تكون موضوعات المحاورة في المسابقة من قبيل (حقوق الجار، وبر الوالدين ونحو ذلك) لا أن تكون كما هو المعهود المتعارف عليه فيها (العصبية والمفاخرة ومديح الذات وهجاء الآخر.. إلخ). ويعلنون في كل حلقة أنهم معنيون بنقل شعر المحاورة من ذلك الموقع الرديء القبيح إلى هذا الموقع الجديد الجميل الرائع. والمؤكد من وجهة نظري أمران: أولهما: أنهم لن ينجحوا في مهمتهم المعلنة هذه؛ لأن هذا النموذج لا تقوم بنيته أصلا إلا على مبدأ الإقصاء بعنف شديد واضح. أما الأمر الثاني ـ وهو الأهم ـ فإن محاولة الإصلاح هذه هي محاولة زخرفة ما هو فاسد في أصله؛ لغرض تجميله ليتكرس وليبقى بعد ذلك أقوى مما كان، حاملا كل ما فيه من رداءة. فبذلك تكون هذه النصوص الفردية المعلنة التي تظهر الجمال إنما جاءت لتكرس القبح، دون أن تعي خطورة ما تفعل (لا يهم هنا الوعي بذلك أو عدمه). وقد تحولت لجان التحكيم والقائمون على البرنامج هنا إلى مجرد أدوات للخطاب القبلي المتعصب الذي يظهر عصبيته من خلال هذا النوع من الشعر، واستطاع أن يكرس نفسه من خلال هذا الطاقم المشرف على البرنامج والمسهم فيه.

هذه مجرد أمثلة، لن أسترسل في سرد المزيد منها، بل أنتقل إلى السؤال الذي يمليه عرض هذه العينة من الأمثلة والتطبيقات، وهو: لماذا يتم الاكتفاء كثيرًا في قراءة الظواهر وتحليلها وإدراك علاقاتها بالمنظور الأفقي دون الرأسي بالصورة التي تم عرضها فيما سبق، وبصورة قد تنم عن أن أغلب أفراد المجتمع يبدون كـــ (Vic Wilcox) وأقل القليل منهم كـــ (Robyn)؟ أعتقد أن السر يكمن فيما تنطوي عليه "العلامات" في بنيتها التكوينية؛ فهي غير بريئة ـــ كما قالت الرواية ـــ وكثيرًا ما تغري بالنظر إلى ما "يمثلها" لتخفي عن الأنظار حقيقة ما "تمثله". وقد جاءت هذه الورقة لتلفت الأنظار إلى هذه النقطة، وأرجو أن تكون قد نجحَت في ذلك.